## الدرس (٠٠٧) من شرح رياض الصالحين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد للّه رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

**أما بعد:**

فلا نزال في باب التوبة من كتاب رياض الصالحين لأبي زكريا النووي رحمه الله تعالى، وقد ساق رحمه الله جملة من الأحاديث العظيمة النافعة في هذا الباب باب التوبة إلى الله عز وجل. نعم

قال المصنف رحمه الله تعالى:

١٨ - (وَعَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ**» رواه التِّرمذيُّ[١]، وقال: حديثٌ حسن).

وهذا الحديث أيضًا فيه شرط سبق الإشارة إليه لقبول التَّوبة: وذلك بأن تقع التَّوبة في وقتها، فإذا حضر الموت، وعاينه الإنسان وشاهده، وقال حينئذٍ: تبت الآن، لا تنفعه توبته؛ لأنَّها توبة معاينة واضطرار، وليست توبة غيب واختيار، فلا تكون حينئذٍ التَّوبة مقبولة.

وهذا فيه التَّنبيه إلى أنَّ الواجب على العبد أن يبادر إلى التَّوبة؛ لأنَّه لا يدري متى يفاجئه الموت، فقد يُؤَخِّر التَّوبة مثلًا إلى غدٍ أو بعد أسبوع، فتأتيه منيَّته، ويحضر أجله قبل ذلك، وكم من إنسانٍ أجَّل التَّوبة ومات قبل أن يتوب، فليتَّق الناصح لنفسه ربه سبحانه وليبادر إلى التَّوبة، وليعلم أنَّ توبته هي سبب فلاحه وسعادته في الدُّنيا والآخرة.

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٣٥٣٧)، وابن ماجه (٤٢٥٣)، وحسَّنه الألبانِيُّ.

والحزم مع النَّفس يكون بترك التَّسويف والمسارعة إلى الخيرات، وعدم التَّسويف، وأكثر ما يحرم النَّاس من الخيرات في هذه الحياة الدُّنيا التَّسويف، كُلَّما أقبلت النَّفس على بابٍ من أبواب الخير جاء الشَّيطان وجاءت النَّفس الأمَّارة بالسُّوء؛ فَسَوَّف إلى أسبوع أو شهر أو سنة، وإذا جاء ذلك الوقت أيضًا سَوَّف إلى وقت آخر، وهكذا إلى أن يموت مُسَوِّفًا، وكثير من النَّاس ماتوا مُسَوِّفين، وكانوا في حياتهم يقولون: فيما بعد سنعمل كذا، وسنعمل كذا، مؤجّلين للتوبة وللطاعات وماتوا ولم يعملوا ولم يتوبوا.

قال المصنف رحمه الله تعالى:

١٩- (وَعَنْ زِرِّ بْنِ حُبَيْشٍ، قَالَ: أَتَيْتُ صَفْوَانَ بْنَ عَسَّالٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَسْأَلُهُ عَنِ الْمَسْحِ عَلَى الخُفَّيْنِ، فَقَالَ: مَا جَاءَ بِكَ يَا زِرُّ؟ فَقُلْتُ: ابْتِغَاءَ الْعِلْمِ، فَقَالَ: إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًى بِمَا يَطْلُبُ. فَقُلْتُ: إِنَّهُ قَدْ حَكَّ فِي صَدْرِي الْمَسْحُ عَلَى الْخُفَّيْنِ بَعْدَ الْغَائِطِ وَالبَوْلِ، وَكُنْتَ امْرَءًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، فَجِئْتُ أَسْأَلُكَ هَلْ سَمِعْتَهُ يَذْكُرُ فِي ذَلِكَ شَيْئًا؟ قَالَ: نَعَمْ، كَانَ يَأْمُرُنَا إِذَا كُنَّا سَفْرًا -أَوْ قال: مُسَافِرِينَ- أَنْ لَا نَنْزِعَ خِفَافَنَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَلَيَالِيهِنَّ إِلَّا مِنْ جَنَابَةٍ، لَكِنْ مِنْ غَائِطٍ وَبَوْلٍ وَنَوْمٍ. فَقُلْتُ: هَلْ سَمِعْتَهُ يَذْكُرُ فِي الْهَوَى شَيْئًا؟ قَالَ: نَعَمْ، كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَبَيْنَا نَحْنُ عِنْدَهُ إِذْ نَادَاهُ أَعْرَابِيٌّ بِصَوْتٍ لَهُ جَهْوَرِيٍّ، يَا مُحَمَّدُ! فَأَجَابَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ نَحْوًا مِنْ صَوْتِهِ: «**هَاؤُمْ**»، فَقُلْتُ لَهُ: وَيْحَكَ! اغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ فَإِنَّكَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، وَقَدْ نُهِيتَ عَنْ هَذَا! فَقَالَ: وَاللهِ لَا أَغْضُضُ. قَالَ الْأَعْرَابِيُّ: الْمَرْءُ يُحِبُّ القَوْمَ وَلَمَّا يَلْحَقْ بِهِمْ؟ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ يَوْمَ القِيَامَةِ**»، فَمَا زَالَ يُحَدِّثُنَا حَتَّى ذَكَرَ بَابًا مِنَ الْمَغْرِبِ، مَسِيرَةُ عَرْضِهِ أَوْ يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي عَرْضِهِ أَرْبَعِينَ أَوْ سَبْعِينَ عَامًا.

قَالَ سُفْيَانُ أَحَدُ الرُّوَاةِ: «قِبَلَ الشَّامِ خَلَقَهُ اللهُ تَعَالَى يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، مَفْتُوحًا لِلتَّوْبَةِ لَا يُغْلَقُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْهُ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ[٢] وغيره، وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ).

هذا حديثٌ عظيم في التَّوبة، وأنَّ بابها مفتوحٌ، وأنَّه لا يُغْلق حتَّى تطلع الشَّمس من مغربها، وأنَّ مَن تاب في أيِّ ساعةٍ من ليلٍ أو نهار، فإنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقبل توبته مهما كان ذنبه وعظم جُرْمه إن صدق في توبته.

ففيه الحثُّ على التَّوبة، والتَّرغيب فيها، وبيان مكانتها، وعظيم شأنها، وأنَّها لا تُرَدُّ من التَّائب في أيِّ لحظةٍ من لحظاته، وفي أيِّ وقتٍ من أوقاته.

وهذا السِّياق الَّذِي ورد فيه هذا الحديث، هو من رواية زر بن حُبيش رحمه الله: أنَّه أتى الصَّحابِيَّ الجليل صفوان بن عسَّال رضي الله عنه وأرضاه، يسأله عن المسح على الخُفَّين، فلـمَّا وصل إليه بهذا القصد، أي: أنَّه ذهب إلى هذا العالم بهذه النِّيَّة الصَّالحة؛ الرَّغبة في العلم، والفقه في الدِّين، قال له: «مَا جَاءَ بِكَ يَا زِرُّ؟» لأنَّ المجيء يختلف فقد يكون في حاجة دنيويَّة أو حاجة دينيَّة، «فَقُلْتُ: ابْتِغَاءَ الْعِلْمِ» أي: أنَّ الَّذِي جاء به هو العلم وطلبه وتحصيله، فأثنى على صنيعه.

وهذا يستفاد منه أنَّ طالب العلم يحتاج فعلًا إلى أن يُشجَّع، وأن يُبَيَّن له فضلُ العلم ومكانته، وأن تذكر له الأحاديث الَّتِي في فضله، حتَّى يزداد حرصًا ومثابرةً وعنايةً بطلب العلم، ولهذا لـمَّا قال زِرٌّ: جئت ابتغاء العلم، قال له صفوان: «إِنَّ المَلَائِكَةَ تَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًى بِمَا يَطْلُبُ».

وزِرٌّ قد حكَّ في صدره المسحُ على الخُفَّين بعد الغائط والبول، وأشكل عليه هذا الأمر، فجاء إلى هذا الصَّحابِيِّ صفوان بن عسَّال الْمُرَادِيِّ، ليسأله عن ذلك، قال له: «كُنْتَ امْرَءًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، فَجِئْتُ أَسْأَلُكَ -عن ذلك-: هَلْ سَمِعْتَهُ يَذْكُرُ فِي ذَلِكَ شَيْئًا؟».

---

(٢) رواه التِّرمذيُّ (٣٥٣٥)، وحسَّنه الألبانِيُّ.

**وهذا يستفاد منه فائدة عظيمة:** وهي أنَّ كلام النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يحسم الأمر، ومعنى ذلك: أنَّه إذا كان قد سمع في ذلك شيئًا من رسول الله ﷺ، انتهت المسألة، وزال ما في الصَّدر بما جاء عن الرسول الكريم ﷺ.

**وهذا أيضاً نستفيد منه فائدة عمليَّة مهمَّة في حياتنا:** أنَّ الأشياء الَّتِي قد يستشكلها المرء برأيه أو بعقله ونحو ذلك، إذا بلغه الحديث فيها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، يجب عليه ألَّا يتردَّد، ويجب عليه أن يترك رأيه لحديث رسول الله ﷺ، وقد قال عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه: «لو كان الدِّين بالرَّأي؛ لكان باطن الخُفِّ أولى بالمسح من ظاهره»[٣]، فإذا مرَّ على الإنسان مسألة، وحكَّت في صدره، أو كان يرى فيها شيئًا، عليه إن بلغه فيها الحديث عن الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن يلزمه.

فبيَّن له صفوان ذلك، قال: «نَعَمْ، كَانَ يَأْمُرُنا إِذَا كُنَّا سَفْرًا -أي: مسافرين- أَنْ لَا نَنْزِعَ خِفَافَنَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَلَيَالِيهِنَّ» أي: تبقى الخفاف لا تُنزَع تلك المدة، ومعلوم أنَّ الإنسان في هذه الثَّلاثة أيَّام يتكرَّر مرَّاتٍ على الغائط والبول، ويتوضَّأ ولا يزيد في وضوئه على أن يمسح على الخُفَّين.

قال: «إِلَّا مِنْ جَنَابَةٍ» أي: إلَّا من غسل الجنابة؛ فإنَّه يُنْزَع الخُفُّ ليُغسل البدنُ كاملًا، أمَّا من الغائط والبول والنَّوم، فإنَّه يتوضَّأ ويمسح على الخُفَّين، فهذه إجابة لسؤاله وإزالة لاستشكاله وما حكَّ في صدره.

بل دلَّت النُّصوص على أنَّ المسح عليهما أفضل من نزعهما، ففي الصَّحيحين من حديث المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ فَأَهْوَيْتُ لِأَنْزِعَ خُفَّيْهِ، فَقَالَ: «**دَعْهُمَا؛ فَإِنِّي أَدْخَلْتُهُمَا طَاهِرَتَيْنِ**» فَمَسَحَ عَلَيْهِمَا[٤] صلوات الله وسلامه عليه.

---

(٣) رواه أبو داود (١٦٢)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

(٤) رواه البخاريُّ (٢٠٣)، ومسلم (٢٧٤).

فسأله سؤالًا آخر، قال: فقلت: «هَلْ سَمِعْتَهُ يَذْكُرُ الهوى شَيْئًا؟» أي: هل سمعته يذكر في هوى الإنسان وميوله، ومحبَّته شيئًا، قال: «نَعَمْ، كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَبَيْنَا نَحْنُ عِنْدَهُ إِذْ نَادَاهُ أَعْرَابِيٌّ بِصَوْتٍ لَهُ جَهْوَرِيٍّ -أي: صوت عالٍ مرتفع- يَا مُحَمَّدُ! فَأَجَابَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ نَحْوًا مِنْ صَوْتِهِ: هَاؤُمْ». والمراد الإجابة للنِّداء. «فقُلْتُ لَهُ: وَيْحَكَ! اغْضُضْ مِنْ صَوتِكَ» أي: أنَّ صفوان رضي الله عنه قال لذلك الأعرابِيِّ: «اغْضُضْ مِنْ صَوتِكَ فَإِنَّكَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، وَقَدْ نُهِيتَ عَنْ هذَا». والأعرابِيُّ مَن يعيش في البادية، وقد يكون عند بعضهم شيء من الجفاء، وعدم مراعاة الأسلوب المناسب والطَّريقة المناسبة في الحديث. فقال هذا الأعرابي: «وَاللهِ لَا أَغْضُضُ» ثمَّ قال سائلاً النبي صلى الله عليه وسلم: «المَرْءُ يُحِبُّ القَوْمَ وَلَمَّا يَلْحَقْ بِهِمْ» يسأل، أي: ما شأن مَن كان كذلك، قال النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ يَومَ القِيَامَةِ**».

وفي هذا المنزلة العظيمة الَّتِي يتبوَّؤها الحبُّ في الله، وهو أوثق عرى الإيمان، كما أخبر بذلك الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وقد جاء في صحيح مسلم، لمَّا قال النَّبِيُّ ﷺ في حديث آخر: «**فَإِنَّكَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ**». قَالَ أَنَسٌ: فَمَا فَرِحْنَا بَعْدَ الْإِسْلَامِ فَرَحًا أَشَدَّ مِنْ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**فَإِنَّكَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ**». قَالَ أَنَسٌ رضي الله عنه: فَأَنَا أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ صلى الله عليه وسلم وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ رضي الله عنهما، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ وَإِنْ لَمْ أَعْمَلْ بِأَعْمَالِهِمْ(٥).

وهذه بشرى عظيمة يفرح بها المسلم أنَّه إذا أحبَّ قومًا صار معهم في الجنَّة وإن قصر به عمله.

قال: «فَمَا زَالَ يُحَدِّثُنَا حَتَّى ذَكَرَ بَابًا مِنَ المَغْرِبِ، مَسِيرَةُ عَرْضِهِ أَوْ يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي عَرْضِهِ أَرْبَعِينَ أَوْ سَبْعِينَ عَامًا» أي: من سعته.

---

(٥) رواه مسلم (٢٦٣٩).

وهذا يدلُّ على أنَّ باب التَّوبة واسع غاية السَّعة، وأنَّها مقبولة، وأنَّها بابها مفتوح في أيِّ وقت.

وهذا موضع الشَّاهد من الحديث، قال سفيان وهو ابن عيينة أحد الرُّواة: «قِبَلَ الشَّامِ خَلَقَهُ اللهُ تَعَالَى يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مَفْتُوحًا لِلتَّوْبَةِ لَا يُغْلَقُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْهُ».

وفي رواية للحديث عند الطَّبرانِيِّ ثُمَّ سَأَلَهُ أي الأعرابِيُّ عَنِ التَّوْبَةِ، فَقَالَ: «**لِلتَّوْبَةِ بَابٌ بِالْمَغْرِبِ مَسِيرَةُ سَبْعِينَ عَامًا أَوْ أَرْبَعِينَ عَامًا، لَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا**»(٦).

وقد ورد في الحديث أنَّ الشَّمس إذا طلعت من مغربها تاب النَّاس أجمعين، لكن لا تُقْبَل التَّوبة في هذه الحال؛ لأنَّها توبة مشاهدة ومعاينة، وإنَّما الَّذِي يُقْبل توبة الغيب، ففي صحيح البخاريِّ عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا طَلَعَتْ فَرَآهَا النَّاسُ آمَنُوا أَجْمَعُونَ، فَذَلِكَ حِينَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ، أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا**»(٧).

وعَنْ أبي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- « ثَلاَثٌ إِذَا خَرَجْنَ لاَ يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَالدَّجَّالُ وَدَابَّةُ الأَرْضِ » رواه مسلم.

ولهذا جاء عن نبينا صلى الله عليه وسلم حثٌّ على المبادرة إلى الأعمال والمسارعة إليها من قبل أن يأتي مثل هذا الوقت الذي لا ينفع فيه إيمان ولا تُقبل فيه توبة، فعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ « بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سِتًّا طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا أَوِ الدُّخَانَ أَوِ الدَّجَّالَ أَوِ الدَّابَّةَ أَوْ خَاصَّةَ أَحَدِكُمْ أَوْ أَمْرَ الْعَامَّةِ » رواه مسلم.

---

(٦) رواه الطَّبرانِيُّ في المعجم الكبير (٧٣٤٨)، وحسَّنه الألبانِيُّ.

(٧) رواه البخاريُّ (٦١٤١).

إن الواجب على المسلم إذا عرف شأن التوبة ومقامها العظيم أن يبادر إليها، وليعلم أن ربَّه سبحانه دعاه إلى التّوبة ورغَّبه فيها مهما كان الذنب ومهما بلغ الجرم، وهو القائل سبحانه: {قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}، ولنتأمل هذا الكرم!! {إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا}، أي: مهما كان الذنب ومهما بلغت الآثام؛ فإن الله – عز وجل – غفورٌ توابٌ يقبل التوبة من عباده؛ فلا يقنطن عبد من رحمة الله، وإن عظمت ذنوبه وكثرت؛ فإن باب التوبة والرحمة واسع، قال الله تعالى: { ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده } [التوبة:١٠٤]، وقال تعالى: { ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما } [النساء:١١٠]، وقال تعالى في حق المنافقين: { إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا إلا الذين تابوا } [النساء:١٤٦، ١٤٥]، وقال { لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم } [المائدة:٧٣]، ثم قال { أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم } [المائدة:٧٤]، وقال { إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا } [البروج:١٠] .

قال الحسن البصري رحمه الله: انظر إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة!.

إن التوابين هم السعداء حقًّا، وأهل الفلاح في الدنيا والآخرة، ومَنْ يتأمل كتاب الله – جل وعلا – يجد فيه من عظيم موعود الله وكريم ثوابه وجزيل ما أعده للتائبين شيئًا كثيرًا، وثوابًا كريمًا، وثمارًا لا تعد.

قال الله تعالى : {وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}

وقال تعالى –: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} [التحريم: (٨)].

والآيات في هذا المعنى كثيرة.

رزقنا الله أجمعين التوبة النصوح وأصلح لنا شأننا كله وهدانا إليه صراطًا مستقيمًا، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.